المحاضرة السابعة: هجرة العلماء خلال الفترة الإستعمارية:

تختلف ظاهرة الهجرة عند العلماء باختلاف الأسباب والدواعي المرتبطة بها حسب طبيعتها ومسارها ودوافعها فمنها الرحلات العلمية أو الحجازية أو الإضطرارية؛ فالجزائر عرفت هجرات عديدة للعلماء ضمن المسار العلمي أو الحجازي أو النفي والبحث عن مستقر آمن .

1-أسباب هجرة العلماء :

تزايدت ظاهرة هجرة العلماء خلال الفترة الإستعمارية نتيجة للظروف الصعبة التي عرفتها الجزائر بسبب الممارسات الإستعمارية والمضايقات الفكرية ضد نشاط العلماء الدعوي، وصعوبة تعايشهم مع الأوضاع نتيجة الحملة الصليبية التي طالت عديد المؤسسات الدينية؛ فقد اختار الكثير منهم الهجرة بحثا عن أماكن آمنة هروبا بدينهم وعن مستقرّ مناسب لمزاولة نشاطهم العلمي والدعوي، ومنهم من آثر البقاء في الجزائر والدفاع عن الدين الإسلامي، ومنهم من تقلّد وظائف دينية كالإمامة والإفتاء والتدريس واتبع أسلوبا وسطا في مواقفه، وقد انقسم العلماء في مواقفهم وفتاويهم حول وجوب الهجرة من عدمها إلى ثلاث فرق منهم من يقول بوجوبها بسبب السيطرة الأجنبية وعدم وجود سلطة إسلامية، ومنهم من يرى بالبقاء مادام هناك حرية دينية وأنّ الفرد لم يمنع من أداء شعائره الدينية، ومنهم من يفضل الهجرة للمستطيع بنية الإقامة المؤقتة إلى أن تزول أسبابها[1].

والهجرة التي عرفتها الفترة الإستعمارية تنوعت بين البحث عن مكان مناسب لاستكمال تحصيله العلمي، ومنهم من أجبرته الإدارة الإستعمارية على المغادرة بعد تعرّضه لمضايقات ومصادرات لأملاكه أو تعرّض للنفي والطرد هروبا من البطش والتنكيل، حيث اختارت الكثير من العائلات الجزائرية والعلماء البلدان العربية والإسلامية كأماكن لاستقرارهم مثل تونس والمغرب وليبيا ومصر وسوريا والحجاز.

2-نفي العلماء من طرف الإدارة الإستعمارية:

في هذا الجانب نماذج متنوعة وكثيرة سنركز على أمثلة مشهورة من كبار العلماء الذين اتخذت ضدهم الإدارة الإستعمارية قرارات تعسفية ،ومن أبرزهم:

[1].سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6،ص 356.

المفتي **محمد بن العنابي** الذي نفاه كلوزيل سنة 1830 إلى الإسكندرية بدعوى تآمره على الإستعمار الفرنسي لإرجاع الحكم العثماني إلى الجزائر، وكذا مضمون المراسلات التي كان يبعثها ابن العنابي إلى كلوزيل يلومه فيها على تصرفاته المخالفة لوثيقة الإستسلام والقوانين الفرنسية وحقوق الإنسان[2].

والمفتي **مصطفى الكبابطي** الذي تطرقنا له سابقا والذي تميّز بمواقفه المعارضة في كثير من القضايا منها تعليم اللغة الفرنسية بالمدارس القرءانية، ففضل البقاء في الجزائر على الهجرة باعتبار أنّ الفرنسيين لم يمنعوا الناس من العبادة وأنّ رسالة الدعوة وحاجة الناس للعلماء أفضل من مغادرة الوطن، وكانت له مراسلات مع قدور بن رويلة كاتب الأمير عبد القادر حول موضوع الهجرة والذي اختار منطلقه الأول الهجرة الداخلية من العاصمة إلى دولة الأمير عبد القادر، وبيّن مشروعية الهجرة استنادا إلى فتوى أحمد الونشريسي في كتاب المعيار، وقد تطورت هذه المراسلات إلى طابع احتجاجي وتباين فكري واختلاف بين العلماء أمثال مصطفى بن المرابط والشيخ علي بن الحفاف، وهو ما تشير إليه إحدى الرسائل التي بعثها قدور بن رويلة إلى الشيخ مصطفى الكبابطي، ورغم ذلك فقد تعرّض الشيخ مصطفى الكبابطي للنفي من طرف السلطات الإستعمارية بسبب مواقفه، فاتجة إلى الإسكندرية سنة 1943، وعلماء آخرين عرفوا طريقهم إلى مصر من أمثال محمد بن علي السنوسي، ومحمد بن عبد الله الزقاي والحاج علي البشير وعثمان الراشدي وغيرهم[3].

وفي نهاية عهد بوجو سنة 1847 وانهزام الأمير عيد القادر تزايدت ظاهرة الهجرة التي شملت مجموعة من العلماء مثل قدور بن رويلة وأحمد بوضرية وأحمد الطيب بن سالم، والمهدي السكلاوي، ومحمد الخروبي، وصالح السمعوني، وحسين بن عزوز، وهاجر الأمير عيد القادر رفقه عدد من أقاربه وأتباعه إلى سوريا ومنهم من التحق بهم سنة 1852 بعد إطلاق سراحهم[4].

ومن العلماء والصوفية الذي هاجروا إلى تونس محمد بن الحاج بن سيدي عقبة، وشيخ الزاوية الرحمانية مصطفى بن عزوز الذي هاجر إلى نفطة أين أسس زاويته الرحمانية، ومحمد الخضر حسين الذي تولّى مشيخة الأزهر، كما تشير

---

[2].حمدان خوجة، المصدر السابق،ص227-228.

[3].أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830- 1954، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 497.

[4] .سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4،ص 195.

بعض الدراسات إلى علماء آخرين من أمثال محمد بن عيسى الجزائري (ت 1310ه/ 1892م) مدرس اللغة العربية والتفسير، والذي تولى مهمة الكتابة لعامة، ومنهم الخيراني قاسم بن محمد بن علي الجزائري المتوفي سنة 1308هـ/ 1890م، والشيخ الفقيه المالكي الصوفي الحسين بن علي بن عمر الطولقي (ت1309ه/ 1891م)، والشيخ المهدي مقدم الطريقة الرحمانية الذي غادر زواوة أواخر 1847 متجها إلى سوريا مع عشرات العائلات وبعض مريديه وتلاميذه نتيجة التوسع الإستعماري بمنطقة القبائل[5].

3-الهجرة الجماعية بعد ثورة 1870 وقانون التجنيد الإجباري 1912:

وبعد فشل ثورة المقراني والحداد سنة 1871 قامت فرنسا بالتهجير والتنكيل بالعديد من الأسر، ومنهم المهجرون إلى كاليدونيا، وفي هذا الجانب تشير الدراسات إلى فرار الشيخ عزيز الحداد ابن المقاوم الحداد، والشيخ علي بومرزاق الذي حكم عليه بالإعدام ولكن عفي عنه سنة 1881، ولم يعد إلى الجزائر إلاّ بعد تدخل ابنه الونوغي بمرزاق مفتي تلمسان وحصوله على إذن بالعودة إلى الجزائر عام 1904، والشيخ عزيز وأخيه محمد وعلي أوقاسي من شيوخ الطريقة الرحمانية، والشيخ عمر شيخ الزاوية الرحمانية بآيت اسماعيل[6].

وبعد التطورات التي أحدثها قانون التجنيد الإجباري1912حدثت هجرة جماعية من طرف عائلات كبيرة نتيجة الإجراءات التي رافقت تطبيقه، من تلمسان والعاصمة وزواوة، أشهرها هجرة عائلة محمد بن يلس شيخ الطريقة الدرقاوية، كما نجد نماذج لمهاجرين اختاروا الإقامة النهائية، ومنهم من رجع لمواجهة الإدارة الاستعمارية ونشر العلوم.

-الرحلات العلمية الى المشرق:

مثلت رحلة الحج نموذجا للتواصل وتلقي العلوم فقد كان المشرق قبلة للعديد من علماء الجزائر لما كان يعرفه من حركة فكرية ثقافية ونشاط للجامعة الإسلامية ساهمت في تبلور الوعي الوطني والنشاط التعليمي، ومن العلماء الذي زاروا المشرق وكان لتكوينهم الفكري أثر في التعليم بالجزائر والنشاط الإصلاحي نذكر الشيخ عبد الحليم بن سماية ومحمد سعيد الزواوي وسعيد بن زكري، وعبد الحميد بن باديس وأحمد بن عليوة، إضافة إلى البعثات والوفود، منها الوفد الذي انتقل إلى

[5].عمار هلال،الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام(1847-1918)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، 2007، ص 15،19.

[6] .سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص 474.

الحجاز ما بين 1916 – 1917 والذي كان يضم كل من قدور بن غبريط والعقيد قاضي الشريف بلعربي، كما استقطب الحجاز عددا من العلماء ومشاهير أمثال حمدان الونيسي والشيخ البشير الإبراهيمي في رحلته الحجازية، وأحمد رضا حوحو، وعمار بن الأزعر،وهاجر إبراهيم اطفيش إلى مصر واستقرّ بها حيث أسس سنة 1925 مجلة المنهاج الشهري التي مثلت منبرا للكتابة لدى الجزائريين[7].

هذه بعض النماذج لمهاجرين جزائريين من العلماء ممن اختاروا البلدان العربية الإسلامية مستقرا لهم رغم تنوع الأسباب التي كانت وراء الهجرة، فمنهم من نفي ومنهم من سافر إلى الحج، ومنهم من استكمل مساره خارج الجزائر إلى أن توفي، والكثير منهم رجع إلى الجزائر وكان له دور في النشاط الفكري والتعليمي، وما يمكن الإشارة إليه أنّ هؤلاء العلماء تركوا آثارا شاهدة عليهم حسب وظائفهم أو مؤلفاتهم أوتكوينهم لتلاميذ واصلوا رسالتهم العلمية.

[7]. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5،ص 476،499.